٣ ـ أصحاب المعالي

(إن الله يحب معالي الأمور ، ويكره سفسافها)
« حديث شريف »

للأستاذ محمد محمود زيتون

ويضارع المتنبي في هـذا أبو فراس الحمداني الذي يجعل الدم سلاحا ذا حدين، فهو للأضياف تارة، وللأعداء تارة أخرى ، والكرم والجهاد للمعالي سبيلان :

للقا العدى بيض السيو ف وللندى حمر النعم
هذا وهذا دأبنـا يودى دم ويراق دم

ويقول بشار بن برد :

وأبسطهم راحة في الندى وأرفعهم ذروة في العلا

ومن أصحاب المعالي المتنازين الشريف الرضي ، ففي أبياته الآتية ذخيرة عالية :

لغير العلا مني القلى والتجنب
ولولا العلا ما كدت في الفضل أرغب
ملكت بحلمي فرصة ما استرقها
من الدهر مفتول الذراعين أغلب
فإن يك سعي ما تطاول باعها
فلي من وراء المجد قلب مدرب
يحسبني أني في الأعادي مبغض
وأني إلى عز المعالي محبب
فللحلم أوقات وللجهل مثلها ولكن أوقاتي إلى الحلم أقرب
يصول على الجاهلون وأعتلي ويعجم في القائلون وأعرب
ولست براض أن تمس عزائمي فضالات ما يعطى الزمان ويسلب

فهو راغب فضل ، وصاحب حلم وإباء عن دنيات الأمور ، لا يباعد بينه وبين عز المعالي أراجيف العدو ، ولا فضالات الدنيا ولا حداثة السن

ويلاحقنا في هذا المضمار الملك أبو فراس مرة أخرى ، فلا يرتضي لأصحاب المعالي أن يحول صغر السن دون مآربهم :

وتقاليده ، وهي عاطفة نبيلة ترمز إلى فكرة التحمس الوطني الذي هو عماد الرقي والتقدم وثباتهما ، فإذا تلاشت هذه العاطفة أو ضعفت ، انهار الإحساس القومي وخمدت في الفرد روح التضحية من أجل الجماعة ، وانتفت مميزاته وصفاته الوطنية وصبغته الشخصية ، وزال طابعه الوطني الذي يعتد به ، وهان عليه كل شيء

إن الإسلام قد ظهر في بلاد تعتبر ملتقى قارات ثلاث تسكنها أجناس مختلفة من بيض وسود وصفر ، ويختلفون في معنى القومية، فلما هدم الإسلام هذه الفوارق ونادى بفكرة المساواة بكل معانيها الواسعة ، تزاوج المؤمنون من الأجناس التي دخلت حوزة الإسلام ، بلا ضابط ولا قيد

وإن كان هذا التزاوج سببا من أسباب ازدهار الثقافة الإسلامية بفعل التلاقح البعيد المدى ، إلا أن هذا الاختلاط الذي حدث بين جميع العرب وجميع الشعوب وخاصة الزنوج الذين دل التاريخ البشري على أنهم جنس عقيم الاستعداد للمدنية، يعلل الاستجابة لداعي الثقافة ، لأن حقائقهم العقلية لا تؤهلهم للنهوض فوق مستوى البربرية ، لذلك تغير الدم العربي ، وقلت نقاوته ، وضاعت صفاته المميزة له ، وفسدت سلالات العرب ذات الاستعداد القوي والقدرة على الإنتاج

وبذلك بدأ التدهور يحل بالأمة الإسلامية ويدب في أوصالها الفناء . ولولا قوة تماسك نظم الشريعة الإسلامية وصلاحية قوانينها والتفاف المسلمين حولها ، لزالت كما زال غيرها من الشرائع العالمية الأخرى ، ولما استطاع أن يصمد لكل هذه الأعاصير التي تتزاحم عليه

عبد الموجود عبد الحافظ

أما أنا أعلى من تعدون همة وإن كنت أدنى من تعدون مولدا

ويقول الشماخ فى عرابة بن أوس الذى اصطف للقتال وهو دون الأربعة عشر يوم أحد :

رأيت عرابة الأوسى يسمو إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما رايـــة رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

وفى الحق أن أبا فراس كان عالى النفس سواء فى حديثه مع نفسه أو عند المحنة النازلة ، فما كانت صفته هذه لنزايله فتى أو ملكا أو أسيرا فى بلاد الروم :

أسرت وما صحبى بعـزل لدى الوغى
ولا فرسى مهـر ولا ربه غمر
ولـكن إذا حم القضاء على امرئ فليس له بر يقيه ولا بحر
وقال أصيحابى الفرار أو الردى فقلت هما أمران أحلاهما مر
ولـكننى أمضى لما لا يعيبنى وحسبك من أمرين خيرهما الأسر
ولا خير فى دفع الردى بمذلة كما ردها يوما بسوأته عمرو
ونحن أناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا فى المعالى نفوسنا ومن خطب الحسناء لم يغلها المهر
أعز بنى الدنيا وأعلى ذوى العلا وأكرم من فوق التراب ولا فخر

ثم هو القائل يحـدث نفسه ، متثبتا من خطاه فى مدارج العلياء :

وما عابك ابن السابقين إلى العلا تأخر أقوام وأنت مقـدم

وليس تميم بن المعز لدين الله الفاطمى أقل من أبى فراس فى هذه الحلبة إذ يقول :

وإنى لألقى كل خطب بمهجة يهون عليها منه ما يتصعب
وأستصحب الأهوال فى كل موطن
ويمزج لى السـم الزعاف فأشرب
فما الحر إلا من تدرع عزمة ولم يـلك إلا بالقنا يتنكب
ومالى أخاف الحادثات كأننى جهول بأن الموت منه مهرب
خليلى ما أكؤس الراح راحتى ولا فى الثانى قدحى حين تضرب
ولـكننى للمدح أرتاح والعلا وللجود والإعطاء أصبو وأطرب
ومن بين جنبيه كنفسى وهمتى يروح له فوق الكواكب مركب

وهذا الزمخشرى يرى أن المجد مكسوب لا موهوب ، فيقـول :

« لا تقنع بالشرف التالد ، وهو الشرف للوالد ، وانضم إلى التالد طريفا ، حتى تكون بهما شريفا ، ولا تدل بشرف أبيك ما لم تدل بشرف فيك ، إن مجد الأب ليس بمجد ، إذا كنت فى نفسك غير ذى مجد ، الفرق بين شرف أبيك ونفسك ، كالفرق بين رزق يومك وأمسك ، ورزق الأمس لا يسد اليوم كبدا ، ولن يسدها أبدا »

وهذا ما نسجه أبو العلاء من قبله ، إذ أنزل نفسه منازل السادة واعتز بطارقه قبل تالده :

ولى منطق لم رض لى كنه منزلى على أننى بين السماكين نازل
لدى موطن يشتاقه كل سيد ويقصر عن إدراكه المتناول

ويقـول :

ينافس يومى فى أمسى تشرفا وتحسد أسحارى على الأصائل
وطال اعتراقى بالزمان وصرفه فلست أبالى من تغول الغوائل

ويقول إذ أصبح بمكان لا يناله غيره ، ومن السفاهة أن يساميه فيه من هو دونه :

وطاولت الأرض السماء سفاهة وفاخرت الشهب الحصى والجنادل

ويقول :

إليك تناهى كل فخر وسؤدد فأبل الليالى والأنام وجدد

وما تواضع أحد إلا ارتفع ، ولا سيما عند القدرة على الاستيلاء لهذا قال القائل :

سدت الجميع فسدت غير مسود ومن البلاء تفردى بالسؤدد

وقال أبو العلاء :

ولو أنى حبيت الخلد فردا لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت على ولا بأرضى سحائب ليس تنتظم البلادا

وفى مقابل هذا يقول ابن مصر القاضى الشاعر ابن سناء الملك

توقد عزمى يترك الماء جمرة وحيلة حلمى تترك السيف مبردا
وإنك عبدى يا زمان وإننى على الرغم منى أن أرى لك سيدا

أليس ابن سناء الملك سليل الفراعنة الشداد الذين حولوا النيل عن مجراه ، ورفعوا الأهرام ، وطاولوا الزمن بالبقاء ،

وضارعوا الخلود بالتحنيط

واختصر ابن المولى جميع المؤهلات فى كلمة واحدة هى « الإسلام » فهو القائل فى مدح الحسن بن يزيد :

ولو ان امرأ ينال خلودا بمحل ومنصب ومكان
أو ببيت ذراه تلصق بالنجم قرانا فى غير برج قران
أو بمجد الحياة أو بسماح أو بحلم أو فى عسلا نهلان
هم ذوو النور والهدى ومدى الأمر وأهل البرهان والعرفان

وهو الذى جعل النبي كالجبل الأشم ، ورهطه كالكواكب العالية ، وكذلك أمير المؤمنين المهدى وأهله من أصحاب المعالى لأنهم ورثة النبي الكريم :

وما قارع الأعداء مثل محمد
إذا الحرب أبدت عن حجول الكواعب
فتى ماجد الأعراق من آل هاشم تبحبح منها فى الذرى والذوائب
أشم من الرهط النبين كأنهم
لدى حندس الظلماء زهر الكواكب
وإن أمير المؤمنين ورهطه لأهل المعالى من لؤى وغالب
أولئك أوتاد البلاد ووارثو النبي بأمر الحق غير التكاذب

ويجرى أبو العتاهية فى هذا المضمار إذ يرى الزهادة سبيل المجد :

دعنى من ذكر أب وجد ونسب يعليك سور المجد
ما الفخر إلا فى التقى والزهد وطاعة تسعى جنان الخلد .
لا بد من ورد لأهل الورد إما إلى ضحل وإما عد

والفضائل وحدها هى عدة المعالى كما يرى الطغرائى بقوله :

أبى الله أن أسمو بغير فضائلى إذا ما سما بالمال كل مسود

ولقد قال أحد الخلفاء :

« لأن يضعنى الصدق وقلما يضع .. أحب إلى من أن يرفعنى الكذب وقلما يرفع »

وللطغرائى مكانة لامعة بين أصحاب المعالى ، حتى إنه ليجعل للملا حديث صدق ، وهو العامل بما تمليه عليه من انتقال وحركة ، ففيهما العز ، وليس ببعيد على من ولى الوزارة بمدينة إربل أن يأتى بهذه المعانى السامية التى تتدرج بها لامية العجم المشهورة إذ يقول :

أصالة الرأى صانتنى عن الخطل وحلية الفضل زانتنى لدى العطل
مجدى أخيرا ، ومجدى أولا شرع
والشمس رأد الضحى كالشمس فى الطفل
فيم الإقامة بالزوراء لا سكنى بها ، ولا ناقتى فيها ولا جملى

ومنها :

حب السلامة يثنى عزم صاحبه عن المعالى ويغرى المرء بالكسل
فإن جنحت إليه فاتخذ نفقا فى الأرض أو سلما فى الجو فاعتزل
يرضى القليل بخفض العيش مسكنة
والعز عند رسيم الأينق الذلل
إن الملا حدثتنى وهى صادقة فيما تحدث أن العز فى النقل
لو أن فى شرف المأوى بلوغ منى لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل

ومنها :

أعلل النفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل
لم أرتض العيش والأيام مقبلة فكيف أرضى وقد ولت على عجل
غالى بنفسى عرفانى بقيمتها فصنتها عن رخيص القدر مبتذل

ومنها :

تقدمتنى أناس كان خطوهم وراء خطوى لو أمشى على مهل
فإن علانى من دونى فلا عجب
لى أسوة بانحطاط الشمس عن زحل

فهذا رجل أصيل من أصحاب المعالى ، فحسبه أن يحفل بالشمس والحمل وزحل ليتخذ من كل ذلك درعا للحياة النشيطة العاملة ، فيعرف قدر نفسه وصانها عن كل رخيص دون . وامتطى الأمل الفسيح فى سبيل الارتفاع ، ، ولم يتخاذل حينما رأى من من دونه يتقدمه فى مدارج الحياة

وليس بلوغ المعالى رهين العجلة ، فقد يكون التأنى سبيل السبق وذلك كما يرى شاعر قديم :

من لى بمثل سيرك المدلل تمشى رويدا وتجى فى الأول